زينب آذرشب *

شخصيات إيرانية في الحضارة الإسلامية

عبيد الله بن عبدالله بن طاهر نموذجًا

(الصفحات ١٨٣-١٩٢)

ملخّص

آل طاهرمن الأسرالإيرانية التي خدمت الحضارة الإسلامية بشكل عام والأدب العربي بصورة خاصة. كبيرهذه الأسرة طاهربن الحسين له الفضل في الحركة العلمية بخراسان وهكذا ابنه عبدالله،وهذه الأسرة كان لها منصب ولاية الشرطة في بغداد أيضًا، ومن هؤلاء الولاة عبيد الله بن عبدالله بن طاهر، ذُكر أن له خمسة كتب، وكان محاطًا باللغويين والشعراء والأدباء. وعبيد الله هذا كان بارعًا في الشعروالنثر، ويميل في شعره إلى الانفتاح على مستجدات العصر، ولذلك خاصمه البحتري ووقف إلى جانبه ابن الرومي. وفي شعره تأثربالفارسية، وسعة في المعاني،حتى قيل إن المتنبي استمدّ من معانيه.

تأسست دولة الطاهريين في خراسان على يد الطاهربن الحسين وطاهرهذا هو قائد المأمون في حربه مع أخيه الأمين،وهو الذي قتل الأمين، ووطّد كرسي الخلافة للمأمون. توفي سنة ٢٠٧ هـ، وبعد وفاته تولى أمورالدولة ابنه طلحة لمدة،لحين قدوم أخيه عبدالله بن طاهرمن مصرحيث كانت تحت ولايته. وابتداء من حكم عبدالله عمّ نفوذ الطاهريين أقطارالخلافة العباسية من مرو إلى القيروان، واشتهربفتوحاته العظيمة وانجازاته العمرانية وتشجيعه العلماء والكتّاب والشعراء.

* - جامعة الزهراء – قسم اللغة العربية – مرحلة الماجستير.

وكان ابنه عبيدالله بن عبدالله بن طاهر من أبرز كتاب زمانه وشعرائه، ومن أشهرمعاصريه البحتري وابن الرومي وابن المعتزّوالمبرّد. ونقف عند مكانة هذا الأمير(عبيد الله في الأدب العربي) بعد مقدمات.

الأدب العربي في بلاط الطاهريين بخراسان

لبيان مكانة عبيد الله في الأدب العربي، لابدّ أن نذكربداية أن أسرة الطاهريين من الأسرالإيرانية المنتمية إلى خزاعة بالولاء، خدمت الأدب العربي ، وثمة أسر إيرانية أخرى نهضت بهذا الدورمثل البرامكة، وآل سهل، وآل نوبخت، وآل ميكال.

مؤسس هذه الدولة طاهربن الحسين، قد اتخذ في (مرو) تراجمةً كما اتخذ المأمون جماعة منهم في بيت الحكمة ببغداد. وأن الحركة العلمية في خراسان كانت متساوقة في نهضتها لما كان يجري في دارالخلافة ببغداد. ابنه عبدالله كان شاعرًا ومتذوقًا للشعرالعربي، قصده كثيرمن الشعراء، بعد أن نقل عاصمته من مرو إلى نيشابور، وعلى رأسهم أبو تمام الذي كان قد تعرّف على عبدالله حين كان واليًا في مصر، ثم قصده إلى خراسان، وأنشده قصيدته المعروفة: (الديوان/٤٧)

هنّ عوادي يوسف وصواحبه فعزمًا فقِدمًا أدرك السؤلَ طالبُه

توفي عبدالله سنة ٢٣٠ وخلّف أولادًا أشهرهم طاهر، وعبيد الله.

طاهربن عبدالله (٢٣٠ –٢٤٨) كان بلاطه أيضًا مؤئلاً للشعراء منهم تمام بن أبي تمام الذي هنأه بالولاية في قصيدة مطلعها: (أخبارأبي تمام/ ٢٦١)

هنّاك ربُّ العرش هنّاكا ما مِن جزيل الملك أعطاكا

بعد وفاة طاهرهذا تولى الدولة الطاهرية بخراسان ابنه محمد بن طاهربن عبدالله (٢٤٨ –٢٥٩)، وهو آخرولاة الدولة الطاهرية بخراسان، إذ استولى عليها الصفاريون.

ولم يرولمحمد هذا بخراسان أدب ولا علم يُذكربه كأسلافه، لكننا نرى لبعض الشعراء فيه مدائح منهم البحتري الذي أنشد فيه قصائد منها مطلعها: (الديوان ٥٧٢/١)

لا زال محتفِلُ الغمامِ الباكرِ يهمي على حُجرات أهل الحاجرِ

وفيها:

متقيّلٌ شرفَ الحسين ومصعبٍ وفعـــالَ عبــدالله بعدُ وطاهرُ

الأدب العربي ببلاط الطاهريين ببغداد

كانت ولاية الشُّرَط ببغداد بيد الطاهريين، ولكن بيد أبناء عم الطاهريين، وهـم أبنـاء مصـعب ،ولـذلك يسـمون بالطـاهريين نسـبة إلـى الدولـة الطاهريـة، وبالمصعبيين نسبة إلى جدّهم مصعب بن الحسين.

أول هؤلاء وأعظمهم وأشهرهم إسحق بن إبراهيم بن مصعب. ومصعب هذا هو أخو طاهربن الحسين.

بلغت الخلافة العباسية أوجها في عصرالمأمون حين كان طاهربن الحسين على المشرق وعبدالله ابنه على المغرب و إسحق على العراق. (الدولة الطاهرية/ ٥١٩)

ولي إسحق الشُّرَط ببغداد مدة اثنين وثلاثين سنة في عهد الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق، وعرف بحزمه وصرامته وضبطه.

ومن أشهرانجازاته انتصاره على المحمرة أصحاب بابك. وسجل أبو تمام هذه الانتصارات في قصائد عديدة.

وكان اسحق لا يقول الشعربل يميّزجيده من رديئه وعلى رأس الشعراء الذين مدحوه أبو تمام ،يقول في قصيدة يمدحه بها بمناسبة انتصاره على الخرمية:

قرّت بقُرّان عيـــن الدين وانتشرت بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

ويــوم خـــريجَ والألبـــابُ طائـــرةٌ لولم تكن ناصرالإسلام ما سلمـا

توفي اسحق سنة ٢٣٥ وولي بعده محمد بن اسحق وللبحتري فيه أشعار، ثم عبدالله بن اسحق، ولم تدم ولايتهما طويلاً إذ دعا المتوكل محمد بن عبدالله بن

طاهرمن خراسان سنة ٢٣٧ فأوكل إليه ولاية الشُّرَط ببغداد، وبذلك انتقلت هذه الولاية من أبناء مصعب إلى أبناء طاهر.

ومحمد بن عبدالله هذا ارتكب جريمة كبرى كانت وصمة عارفي جبين هذه الأسرة، وهي قتل الثائرالعلوي يحيى بن عمرسنة ٢٥٠. فرثى الشعراء هذا العلوي بأكثرمما رثي أحد من شهداء الطالبيين، وهجوا قاتله وأسرته. (مقاتل الطالبيين، ص ٦٣٩).

وتروى لمحمد بن عبدالله بن طاهرمجالس أدبية مع أبي العباس ثعلب وأبي يزيد المبرّد. ويروى له شعر، كما يروى شعرفي مدحه وأكثرمن ذلك في هجائه لما ارتكبه من قتل يحيى بن عمر. وأشهرمن هجاه ابن الرومي وابن طيفور.

وتلاه في ولاية الشُّرَطة عبيد الله بن عبدالله بن طاهر، وهو المعنيّ في هذه الدراسة.

عبيد الله بن عبدالله بن طاهر (٢٢٣ – ٣٠٠)

كانت لعبيد الله مكانة رفيعة في الأدب وفنونه.

وتذكر كتب التراجم أنه كان مؤلفًا وشاعرًا وناقدًا وملحنًا. في تأليفه يذكر صاحب الوفيات أسماء أربعة كتب من تصانيفه (وفيات الأعيان ١٢٠/٣).

١ – كتاب الإشارة في أخبارالشعراء

٢- كتاب رسالته في السياسة الملوكية

٣- كتاب مراسلاته لعبد الله بن المعتزّ

٤- كتاب الإشارة في أخبارالشعراء

ويضيف صاحب *الأغاني* إليها كتابًا خامسًا «كتاب الآداب الرفيعة» في النغم وعلل الأغاني (الأغاني ٤١/٩).

ويظهرمن أصحابه أنه كان محاطًا باللغويين والشعراء والأدباء، ومنهم ابن المعتزوجحظة وجعفربن قدامة والقاسم الكوفي وكان هذا الأخيرشاعرًا ويراسله بالشعر.

وقال عنه صاحب *الأغاني* (٤٠/٩): «له محل من الأدب والتصرّف في فنونه وروايـة الشعروقوله، والعلم باللغة وأيام الناس وعلوم الأوائل من الفلاسفة في الموسيقى والهندسة، وغيرذلك مما يجلّ عن الوصف ويكثرذكره.وله صنعة في الغناء حسنة متقنة عجيبة تدل على ما ذكرناه هنا من توصله إلى ما عجزعنه الأوائل».

نثره:

لم تصلنا كتب عبيد الله،لكنّ ما روى عنه من مراسلات مع ابن المعتزّيدل على مهارته في النثرالمصنوع ، وقدرته على التصرّف في أنواع البيان، نذكرله رسالة جوابية على رسالة تعزية بعثها إليه ابن المعتزّفي وفاة جاريته الأثيرة «شاجي» التي جزع عليها عبيدالله الجزع الذي لم يُرَمثله قال عبيد الله بن عبد الله:

«وصل كتاب السيد ـأطال الله بقاءه ـمملوءًا بالبروالفضل والإنعام والتطوّل وفوائد الأدب وجوامع المحاسن. فلتقيته بحقه من الإعظام والشكروالمعرفة بعلوّ قدره وارتفاع درجته وارتقاء رتبته في حسن التأليف واتفاق المعاني وجليل الصواب وجميل الخطاب. ولقد رفع الله الأدب والعلم ونواظرأهلها بالسيد ـأيده الله بعنايته وقدرته ـفأما المشاركة فمعهودة من تفضله .. وأما الصبرفهوالذي لابد منه اضطرارًا أو اختيارًا.

إذا ما أصاب ذا حياة مصيبـة فقاتلها منه التحمّل والصبـر

فما بعدت من أن تحوّل نعمةً يحقّ علينا الحمد لله والشكرُ

وأما الجزع، فما أصاب وأوجع وألّم وروّع، فلامحيد عنه، وإذا لم يتعد العين والقلب إلى البدن واللسان ،فخطبه أسهل.. ولو كان على أشد المضض وأمر الغصص ولوعة الأبد ودوام الكد وأقول:

أسـرُّأمـورالدهرصارأغمّه وكل جديد صاربعدك باليـًا

فأعجب من شهد تحوّل علقمًا ومن ضاحك لم يَعْدُ أن ظلّ باكيا

وأما السلوة أعزالله السيد،فليست من فعل أحرارالمخلصين لافي محيا ولا في ممات و إنما هو اغتنام الاحتساب واتصال الإكساب، والعياذ بالله من فقد العزاء وفقد أجره. وبالله يا سيدي، إن الشخص لخاشع و إن الطرف لدامع و إن القلب لحران موجع..

وبينا الفتى يبكي ويندب شجوه ومألوفه إذ صاريبكى ويندب

وأنا أفاوض السيد ـأطال الله بقاءه ـالشيء بعد الشيء مما نطق به الحزن وأبثه إياه، فمن ذلك:

وقفت على الأحباب والتّرب دونهم بنفسي وجوه تحت تلك المقابر

ومثّل لي ما نال من حسنها البلى فسبحان ربٍ عالم بالسرائر

في هذا النص تتجلّى شخصية عبيد الله الأدبية والخلقية فهو أديب ناثرمترسّل، جُمَلُه مسجّعة من غيرتكلّف، وعباراته فيها مسحة من الجمال والذوق، والأشعار التي تتخلل النصّ تأتي منسجمة مع النثر. وأما شخصيته الخلقية فيظهرأنه وقور صابرمحتسب رغم ما نُقل عنه من جزع. ونرى هذا الوقارفي شعره ـ كما سيأتي ـفليس فيه الهجاء ولا الطرد ولا الخمريات، فقد ترفّع عن كل ذلك.

شعره

لعبيد الله ديوان فيه من الشعرما يفوق شعرجميع أمراء الطاهريين. قال ابن خلكان: «وله ديوان شعرونقتصرمن نظمه على هذا القدر» (وفيات الأعيان ١٢٠/٣)، وقال الشابشتي: «لعبيد الله شعر كثير» (الديارات/ ٧٨).

نظم عبيد الله على بحورالشعرالمعروفة والمشهورة في عصره، ومعظمها من الأوزان الخفيفة والطويلة المجزوءة.

ويميل في شعره إلى الانفتاح على مستجدات العصر، ولذلك خاصمه البحتري الذي يمثّل التيارالمحافظ، ووقف إلى جانبه ابن الرومي الذي أنشد فيه قصائد

عديدة ورد فيها ذكراحتفال الأميربالنوروزوالمهرجان. (تاريخ الأدب العربي في العصرالعباسي/ ١٤٦ – ١٤٨).

وذكرالقدماء ملاحظتين على شعره:

الأول - التأثيرالفارسي

والثانية- استمداد المتنبي من معانيه.

فمن الأولى ما ذكره العميدي في *الإبانة عن سرقات المتنبي* وقد ذكر بيتين لعبيد الله:

صرفنا وجوه الخيل بالسيف بعـــدما

تكدّسن مثل السيل من كل جانبِ

وعـــدنا ســـراعًا غـــــانمين وهمّنا

طـــلاب المعالي واكتسابُ المناقـبِ

ولاحظ عليه استعماله «من كل جانب» فذكرقول المتنبي في المعنى نفسه:

وخيـــل حشوناهـــا الأسنّة بعدمـــا

تكدّسن من هَنّا علينا ومـــــن هَنّا

ثم قال: «ولعل ابن طاهرلما كان من العجم قال في شعره «من كل جانب» ولو كان مثل هذا الشاعر بدويًا قُحًا لقال من هنّا علينا ومن هنّا» . (الإبانة/١٥٢).

والواقع أن عبيد الله ابتعد عن البداوة وكان شعره حضريًا،وهذه الروح الحضرية ـ و إن بدأت على يد بشارالإيراني وتواصلت على يد الإيرانيين ـ هي من ميزات الشعرالعربي في العصرالعبّاسي بشكل عام.

ومن الثانية (استمداد المتنبي من معانيه) ما قاله عبيد الله:

وجرّبت حتى ما أرى الدهرَمُعريًا

عليّ بشيء لم يكن في تجارُبي

قال العميدي في الإبانة عن سرقات المتنبي (الإبانة/٢٨٦) أخذ أبو الطيب هذا المعنى غيرمرة.من ذلك قوله:

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا
فلما دهتني لم تزدني بها علما

وأيضًا ذكرالعميدي قول عبيد الله:

هتكنَ الحجابَ فبانت لهنّ
بدورُالدُّجى مالها من أفول
ولما انهتكن شققن الجيوب
فصارت عليهنّ مثل الذيول

ثم ذكرقول المتنبي:

وأمسى السبايا ينتحبن بعرقه كأن جيوب الثاكلات ذيول

ويلاحظ أيضًا في شعرعبيد الله اطلاعه على الشعرالقديم وقدرته على تضمين هذا الشعرفي قصائده من مثل قصيدته:

وقائلة والدمع سكب مُبادرٌ
وقد شرقت بالدمع منّا المحاجرُ
«كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيسٌ ولم يَسمَرْبمكة سامِرُ»
فقلت لها والقلبُ مني كأنّما
يلجلجُهُ بين الجناحين طائرُ
«بلى نحن كُنّا أهلَها فأزالنا
صروف الليالي والجدودُ العواثرُ»

والبيت الثاني والرابع من قصيدة لقدماء العصرالجاهلي هو مضاض بن عمرو بن مضاض بن عمرو الجرهمي وهو يودّع مكة.

ونقل موقع http://www.poetsgate.com/poet_2874.html مائة مقطوعة، بعضها لا يتجاوزالبيت الواحد أو البيتين وأورد صاحب *أدب الطاهريين في خراسان والعراق* له ثمانين قصيدة ومقطوعة.

استشهد ابن رشيق القيرواني في «العمدة» بشعره حين تناول باب الاستطراد فقال: ومن الاستطراد نوع يسمى الإدماج، ونحو ذلك قول عبيد الله بن عبدالله بن طاهر لعبيد الله بن سليمان بن وهب حين وُزر للمعتضد (وفيات الأعيان ١٢٠/٣ وما بعدها).

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا ... وأسعفنا فيمن نحبّ ونُكرمُ
فقلت له: نعماك فينا أتمّها ... ودع أمرنا إن المهمّ المقدّمُ

وروى له صاحب الوفيات أيضًا:

إن الامير هو الذي ... يُضحي أميرًا يوم عزله
إن زال سلطان الولا ... ية لم يزل سلطان فضله

وروى له أيضًا:

إقضِ الحوائج ما استطَعْـ ... ـتَ وكن لهمّ أخيك فارجْ
فلخيرُأيام الفتى ... يوم قضى فيه الحوائج

وأطول قصيدة وصلتنا من شعره ماروي عنه في ردّه على البحتري، فهذا الشاعر هجا عبيد الله بقصيدة تتضح فيها شخصيته الخلقية والأدبية ومنها قوله:(أدب الطاهريين /٢٢٨وما بعدها)

أجِدُّ هذا المقَالِ أمْ لَعِبُهْ ... أمْ صِدْقُ ما قِيلَ فيهِ أمْ كذَبُهْ
لِشَدّ ما بَيّنَ الزّمَانِ لَنَا ... يا صَاحِ ما قصدُهُ وما أرَبُهْ
حَقّا يقينًا فَمَا تَشَكُّكُنَا ... في الدّهْرِمِنْ بَعدِ أنْ خلا عجبُه
وَمَا عَلى الدهرمنْكَ مسألةٌ ... إن أنتَ فيها بالظّلمِ ترتكبُهُ
وَعُدتي لِلهُمُومِ إنْ جُزيَتْ ... صَبرٌوصدرٌمستوسِعٌ رحَبُهُ
وَلَم أقُلْ للزمانِ قد رخصتْ ... بل كثُرتْ في خُطُوبهِ نوبُهْ
كَمْ خَاملٍ حامل بهمَّتِهِ ... ونابهٍ قاعدٍ بِهِ لَقَبُهْ
وإنَّما المرءُ عقلُهُ فإذا ... أحْرَزَعقلا فَعِندَهُ أدَبُهْ

خاتمة:

مما ذكرنا نستنتج أن هذا الأمير الإيراني كان قد توّج نشاط أسلافه من الطاهريين والمصعبيين بخدمة الأدب العربي بشعره ونثره. ومجموعة ما وصلنا من أشعاره تستحق أن تجمع من مظانها ـ بعد التحقيق ـ في ديوان، ليكون إضافة جديدة لدواوين الشعراء الإيرانيين بالعربية، ومن خلال هذا الديوان نستطيع أن نكتشف كثيرًا من الأوضاع السياسية والاجتماعية والأدبية لعصرمهمّ عاشه هذا الأمير.

المصادر:

ـ *أخبار أبي تمام*، أبو بكر الصولي، تحقيق محمد عبدو عزام وآخرون دار الآفاق الجديدة، ط ٢، بيروت ١٩٨٠م.

ـ *أدب الطاهريين في خراسان والعراق*، المنجي الكعبي، تونس، بلا تاريخ.

ـ *الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى*، أبو سعيد محمد بن أحمد العبيدي المطبعة العباسية، القاهرة، بلا تاريخ.

ـ *الأغاني* ، كتاب، أبو الفرج الأصفهاني، دار احياء التراث العربي، مصورعن طبعة دار الكتب.

ـ *تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي*، محمد علي آذرشب، ط ٥ انتشارات سمت، طهران: ١٣٩٠ هـ. ش (٢٠١٢م).

ـ *ديوان أبي تمام*، القاهرة، ١٩٤١م.

ـ *ديوان البحتري*، شرحه و علق عليه الدكتور محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

ـ *الدولة الطاهرية في خراسان والعراق*، المنجي الكعبي، مركز النشر الجامعي، تونس ٢٠٠٥م.

ـ *الديارات*، الشابشتي، علي بن محمد، تحقيق كوكيس عواد، ط ٢، بغداد ١٩٩٦م.

ـ *مقاتل الطالبيين*، أبو الفرج الإصفهاني، منشورات المكتبة الحيدرية النجف ١٩٦٥م.

ـ *وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان*، ابن خلكان، دار صادر بيروت.